الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

اليقين بالمعية الإلهية في "لا تخافا"

منهج تربوي للتمكين الروحي والمجتمعي

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

360 KNO SMART SCHOOLING — ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY
unicef
UNESCO — United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx — Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA — LONDON - UK
AMIEF — American International Education Federation

في حياة سمتها الجمع بين المتناقضات والثنائيات، فما بين خوف وأمن، وشرّ وخير، وعدل وظلم، نواجه كبشر العديد من المواقف التي تدفعنا دفعاً لنكون في موقع المواجهين والمدافعين في أغلب محطات حياتنا، فنكتشف في هذه المواجهات تصادماً فيما بين الحقائق والمغالطات المزيفة، وليس الأمر منوطاً بنا كأناس عاديين وحسب، إنّما هو أمر يطال حتّى الرسل، فقد كانت رسالاتهم تقف أمام القوى الظالمة وتعاني من هذه المواجهات الغاشمة، وهنا يأتي الخطاب الإلهي لا من منطلق الطمأنة العابرة، إنّما من منطلق ترسيخ نهج إلهيّ وتربويّ عميقٍ يُعيد تشكيل البنية النفسية والروحية للإنسان، ففي قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه: 46)، نجد نموذجاً تطبيقياً لعلم التربية الإلهية في بناء اليقين ومواجهة التحدّيات التي تصاحب التقاء الخوف بهذا اليقين.

فقد جاءت عبارة" لا تخافا" لتحمل في عمقها صيغة النهي لا لمجرد الأمر بالتوقف عن الخوف، إنّما من باب الدعوة لإعادة ترتيب أولويات الوعي، فالخوف هنا ليس العاطفة الطبيعية التي تحمي الإنسان، بل هو الخوف المعيق الذي يشلّ التفكير والقدرة على إصدار الأحكام الصحيحة، ويُعطِل الحركة ويُجمِّد الإرادة، وهو هنا الخوف من المجهول، من قوة فرعون الظاهرة، من حجم المسؤولية الملقاة على كاهل رسولين يقفان أمام إمبراطورية ظالمة طاغية، وقد جاء التعبير بصيغة المثنى "تخافا" ليعكس دلالة عميقة للخوف الذي قد يتضاعف عندما يكون مشتركاً، وفي المقابل فإنّ اليقين أيضاً يقوى بالشراكة، فموسى وهارون لم يكونا وحيدين في مواجهة الطاغوت، بل كانا شركاء في الرسالة والمسؤولية.

وها هي ذي نماذج معيّة الرسل تتجلّى في التطبيق القرآني عبر الرسالات، فعندما ألقي سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار، لم تكن "لا تخافا" مجرد كلمات، بل حقيقة متجسدة في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: 69)، فالمعية هنا تجلّت في تحويل أداة العذاب إلى وسيلة نجاة، وتحويل المحنة إلى منحة، فالمعية مع إبراهيم لم ترتبط بمنع الابتلاء، إنّما قُصد بها الحفظ في الابتلاء والنصر من خلاله، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: 47) ، فالنصر هنا ليس مجرد نجاة جسدية، إنّما انتصار للعقيدة والمبدأ والرسالة.

ARAB-PSF.COM

وفي قصة يوسف عليه السلام تقديم لنموذج آخر لتطبيق المعيّة في الغربة والسجن، فعندما ألقوه إخوته في الجب، وعندما واجه في بيت العزيز الفتنة، وعندما واجه في السجن ظلماً، كانت المعية الإلهية معه في كلّ مرحلة، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 21)، فقد تجلّت المعيّة هنا في التوفيق للحكمة في التّعامل مع المحن، والإلهام للكلمة المؤثّرة في تعبير الرؤى، والحفظ من الوقوع في المعصية رغم الإغواء، فسيدنا يوسف عليه السلام قد واجه فراعين النفس والشهوة والظلم الاجتماعي لا فرعون الطاغوت كموسى عليه السلام.

ولو جئنا لمفهوم وتطبيق المعية الإلهية في البناء التربوي، لوجدناها تتدرّج في مراحل ومستويات؛ فتبدأ بالمعية العامة التي تعكس الأساس الوجودي للإنسان، وهي تشمل جميع الخلق بلا استثناء، وهي معية العلم والقدرة والإحاطة، يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: 4)، وهذا المستوى يؤسّس للوعي الأوّلي بأنّ الإنسان ليس معزولاً في الكون، وأنّ هناك علماً يحيط به وقدرة تدبّر شؤونه.

ومن ثمّ تأتي المعية الخاصة وهي معية النصرة والتأييد، التي تختصّ بأهل الإيمان الذين اصطفوا اللّٰه واصطفاهم، فيقول اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: 128)، وهنا تتجاوز المعيّة الإحاطة العامة إلى التأييد العمليّ والنصرة الحقيقيّة في مواقف الجهاد والإصلاح.

وتليها المعية الفريدة، وهي معية الوحي والحفظ الخاصة بالأنبياء والرسل، معية التسديد من الزلل، ففي قوله تعالى "إنني معكما أسمع وأرى" إشارة واضحة إلى هذا المستوى الفريد الذي عكس مضمون السّمع الإلهيّ لكلّ ما يُقال، والرؤية الإلهيّة لكلّ ما يحدث، مع الضمان الكامل بالحفظ والتسديد.

ولو أردنا تكييف المعيّة الإلهيّة ضمن السياقات التربوية، من أجل تحويل الخوف إلى تمكين، فإنّ ذلك ممكن الحدوث ضمن مراحل متدرّجة أوّلها إزالة الحاجز النفسي، فقول اللّٰه "لا تخافا" تمثّل المرحلة الأولى في البناء التربوي، لكون الخوف هو العدو الأول للإنسان وصلاحه، فكان لزاماً أنْ يتمّ إزالة الحواجز النفسية التي تمنعه من الانطلاق.

وثانيها بناء الثقة بالمعية، فمن خلال قول اللّٰه "إنني معكما" يظهر ما هو أعمق من مجرّد الإخبار، وهو تأسيس لبرنامج تربوي لبناء الثقة، فالمعية هنا ليست مجازية أو معنوية فحسب، بل حقيقة واقعة تتجلى في التأييد والنصرة والحفظ.

وثالثها تفعيل الرقابة الإلهية، فقول اللّٰه "أسمع وأرى" يُفعِّل في النفس حقيقة الرقابة الإلهية الشاملة، وهذا لا يخلق الخوف، بل يخلق الطمأنينة، فاللّٰه الذي يسمع تهديدات فرعون هو نفسه الذي يرى ضعف موسى وهارون، وهو القادر على تحويل الضعف قوة والتهديد أماناً.

هذا ولا بدّ من معرفة أنّ لكلّ معيّة سنناً إلهيّة تعكس قوانينها وترافقها، فهناك سنة النصر بعد الصبر، فيقول اللّٰه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ (يوسف: 110)، فالمعية الإلهية لا تعني سهولة الطريق، بل تعني ضمان النتيجة، فالصبر على البلاء جزء من منهج التربية الإلهية، والنصر بعد الصبر سنة إلهية لا مانع لها، وسنة التدرّج في التمكين، فموسى عليه السلام لم ينتصر على فرعون في اليوم الأول، بل مرّ بمراحل تدريجية بدأت بالدعوة، ومن ثم الآيات، والمواجهة، والنجاة، وأخيراً الهلاك لفرعون، فالتدرج سنة إلهية في التمكين تحقّق حكماً تربوية وتزكوية عميقة، وسنة الابتلاء للتمحيص، فالمعية لا تعني غياب الابتلاء، بل تعني حضور الحكمة في الابتلاء والعناية في المحنة، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: 2).

وللمعيّة الإلهيّة أبعاد يظهر أثرها في المجتمعات والأفراد، إذ تصبح المعيّة من جانب علاجاً القلق الوجودي في عصر التوتّر والاكتئاب، فتقدّم "لا تخافا" علاجاً روحياً عميقاً للقلق الوجودي، فالإنسان المعاصر يعيش خوفاً مزمناً من المستقبل، من الفشل، من الوحدة، من فقدان المعنى، فتأتي حقيقة المعيّة الإلهيّة لتجيب على هذه المخاوف بطريقة جذرية مفادها " أنت لست وحيداً، واللّٰه معك يسمع ويرى".

فضلاً عن أنّ المجتمعات التي تعيش حقيقة المعية الإلهية تتميز بمستوى أعلى من الثقة المتبادلة والتماسك الاجتماعي، فعندما يؤمن الأفراد بأنّ اللّٰه معهم، يصبحون أكثر قدرة على أن يكونوا مع بعضهم البعض، فالمعية الإلهية تخلق معية إنسانية.

ولو توقّفنا لنسبر أغوار تطبيق المعيّة الإلهية أو الرسالة الإلهية المتجليّة في " لا تخافا" في حياتنا اليوميّة، لوجب علينا ترسيخ منهج تطبيقي للعيش في ظلّها، وهذا يشمل؛ التربية على اليقين، فيكون هناك دراسة معمقة للقرآن والسنة لفهم حقائق المعية من مصادرها الأصيلة، والتأمل في التاريخ الإسلامي ودراسة نماذج عملية لتطبيق المعية في حياة الصحابة والتابعين، والربط بين النص والواقع من منطلق عدم الرغبة بالاكتفاء بالجانب النظري، إنّما ربطه بالتجارب المعاصرة أيضاً، وهنا يأتي دور الأسرة كأوّل من يقع عليها عاتق هذه التربية، فهي تقوم بتربية أبنائها على الثقة باللّٰه، من خلال القصص والحكايات التي تجسد معاني المعية، وتعمل على مواجهة مخاوف الأطفال بشجاعة وإيمان، باستخدام "لا تخافا" كمنهج لعلاج مختلف أنواع الخوف عند الأطفال، وتعمل على بناء الشخصية المتوازنة التي تجمع بين الحذر المطلوب والثقة باللّٰه.

ومن ثمّ التدريب على الثقة، ويكون ذلك بالبدء بالتحديات الصغيرة: وتطبيق مبدأ "لا تخافا" في المواقف اليومية البسيطة، والتدرج في المسؤوليات فلا يتمّ التوجّه نحو التحديات الكبرى قبل التدرب على الصغرى، ومداومة الدعاء والذكر بتفعيل الرابطة الروحية مع اللّٰه من خلال الأذكار والأدعية المأثورة، وهنا يأتي دور المؤسّسات التعليميّة لتدعم دور الأسرة بداية، ولتقدّم المناهج الدراسية التي تدرج قصص الأنبياء ومعاني المعية فيها، وتنفّذ الأنشطة والمشاريع التي تتطلب شجاعة وثقة، وتعدّ المعلمين وتدرّبهم على كيفيّة نقل معاني المعية للطلبة.

إلى جانب الممارسة الجماعية، من خلال العمل الجماعي بتطبيق المعية في إطار جماعي، والتناصح والتواصي ببناء بيئة مجتمعية تدعم تطبيق مبادئ المعية، والقدوة العملية بوجود الدعاة الأسوياء، وهنا يظهر دور التربية الدعويّة في إعداد الدعاة وتربيتهم على معاني المعية قبل إرسالهم للدعوة، ومواجهة التحديات باستخدام مبادئ "لا تخافا" في مواجهة تحديات العمل الدعوي، والعمل على تعزيز وبناء الثقة في النصر بتعميق الإيمان بوعد اللّٰه بنصر دينه.

ورغم كلّ هذه الخطوات والتدابير، فلا بدّ من معرفة أنّ المعيّة الإليهة ستواجه عدداً من التحديات المعاصرة؛ كالفهم المغلوط للمعيّة، إذ إنّ بعض الناس يفهمون المعية على أنّها ضمان لعدم حدوث أيّ مكروه، وهذا فهم خاطئ، فالمعية تعني الحفظ والتأييد والنصرة، لكن قد تكون من خلال الابتلاء نفسه، فيوسف عليه السلام كان في معية إلهية وهو في السجن، وموسى كان في معية اللّٰه وهو يهرب من فرعون، ومن ثمّ

وجود ضعف في الثقة بالنصر الإلهي، ففي عصر الانكسارات المتتالية للأمة، يصاب كثير من المؤمنين بضعف الثقة في وعد اللّٰه بالنصر، وهنا يأتي دور التربية على السنن الإلهية، وفهم أنّ النصر قد يتأخر لحكم، إلاّ أنّه آت لا محالة، إلى جانب وجود خلط بين الأسباب والتوكلّ، فبعض الناس يفهمون المعية بأنّها إلغاء للأسباب، فيتركون العمل والسعي اتّكالاً على المعية، إلاّ أنّ الصواب أنّ المعية تدفع للعمل لا تثبّط عنه، وتجعل من الأسباب وسائل لا أهدافاً.

وختاماً،

فإنّ "لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى" انطلقت من كونها آية في كتاب اللّٰه عزّ وجلّ لتصبح منهجاً متكاملاً لبناء الإنسان والمجتمع والحضارة، فعندما تستوعب الأمة حقيقة المعيّة الإلهية، وتطبقها في واقعها، فإنها تنتقل من مرحلة الخوف والانكماش إلى مرحلة الثقة والانطلاق، إلى مرحلة تحويل الكلم إلى فعل وحراك، والوعد إلى إنجاز، والمعيّة إلى نصر.

وما أحوج أمتنا اليوم إلى استيعاب هذا الدرس، ففي زمن تتكالب فيه القوى على الإسلام والمسلمين، وتتعاظم فيه التحديات والمخاوف، كما تتكالب الأكلة إلى قصعتها، تحتاج هذه الأمة العظيمة أن تسمع من جديد خطاباً يدعوها لعدم الخوف، فاللّٰه معها يسمع ويرى، وتحتاج إلى أنْ تحوّل هذا السماع إلى إيمان، والإيمان إلى عمل، والعمل إلى نصر.

فالمعية الإلهية ليست وعداً للمستقبل فحسب، بل حقيقة للحاضر، وليست طمأنة نفسية وحسب، إنّما نهج حياة كامل، وليست معيّة خاصة بالأنبياء فحسب، بل متاحة لكلّ مؤمن يسعى في سبيل اللّٰه بصدق وإخلاص، يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق:3)، فهذا هو الطريق الذي نرجوه في حياتنا، أن ننطلق من نهج "لا تخافا" إلى أن نصل إلى يقين بنهج "إنّ اللّٰه بالغ أمره"، وأنْ نصل بالمعيّة إلى التمكين، ومن الثقة بالوعد إلى تحقيق الإنجاز.

اللهم اجعلنا من الذين يعيشون في كنف معيتك، ويستشعرون قربك ورحمتك، ويعملون وهم موقنون بأنك تراهم وتسمعهم، واجعل هذا اليقين نوراً في قلوبنا، وقوة في أعمالنا، وسكينة في نفوسنا، اللهم آمين.